سبعة العربي ودمتها «٢»

الحرب النووية فى شهر

في الحديث عن «الهروب من مواجهة الذات» أشرنا إلى أن ذلك يؤدي الى حشد من النقائص ومنها السلوك الغريب المتناقض الذي أطلقنا عليه «غرام الأعرقاء» مستخدمين هذه اللفظة الشعبية المنحوتة من صميم الواقع «أعرقاء» هذا السلوك هو موضوع اليوم.

تتعدد تجليات سلوك «غرام الأعرقاء» بتعدد العلاقات الانسانية، يكاد يشملها جميعا دون استثناءات. وأبرز تجلياته علاقة الرجل بالمرأة في أطوار نموها ابتداءا من التعارف الأول وحتى الزواج.

ففى المرحلة الأولى يلتقى شاب مليح المظهر كامل «الصفات» بفتاة تبدو وكأنها ملاك. كل منهما قد أخفى كل معالم شخصيته الحقيقية وتلفّع بثوب من ماكياج التنكر والخداع البرىء والتلقائى.

كل منهما ممثل بارع وموهوب يتقمص دور فارس الأحلام النمطي او فتاة الأحلام النموذجية. ويمضيان يغزلان الأكاذيب حتى يقع كل منهما فى غرام الآخر. ويتحول الوجه المتنكر إلى وجه معشوق. إذا واجهت أحدهما بحقائق الآخر كذّب كل ما تقول وأقسم أنك ظالم وعدوّ بل أكثر من ذلك لو رأى أحدهما في صاحبه بعينه نقيصة فى الآخر لم يصدق عينيه ومضى يبررها عن صاحبه بعينه نقيصة فى الآخر لم يصدق عينيه ويمضي يبررها وبأسانيد وهمية. وتقع الفاس على الرّاس وتتم الخطبة لتبدأ كوميديا جديدة يتعدد فيها الممثلون وهم أهل الفتى المليح وأسرة الفتاة الملاك. فكل منهما سليل الحسب والنسب لاجدال.

تبدأ مظاهرات صاخبة من المساومات والادعاءات والتكلف فى سباق عسكري من المظاهر الكذّابة و«الفشخرة» بلا حدود. حرب باردة يتم تسخينها بين الحين والحين. ويقع الجميع فى حبائل الجميع وتتفاقم المشاكل والدّيون والأحقاد عند كل طرف وهو يقوم بمحاولات جبارة لاخفاء ذاته. يتحول كل ذلك الى قنابل زمنية تنفجر بعد الزواج الذى يبدأ ما حفل الزفاف. وما أدراك بحفل الزفاف فى بلادنا. مهرجان من الألعاب النارية والبهلوانية تتلألأ فيه الأضواء والتيجان والزغاريد فى عرض للأزياء والأناقة والتشنجات. ويصل الأمر أحيانا الى رسن قطع من العملات الذهبية بدلا من الملح و«بتلات» الزهور حتى تنشغل عيون الحسّاد ببريق الذهب وكل من فى الحفلة حساد. ان تكاليف حفلات الزفاف فى مصر كفيلة بعمل مشروع مارشال مصري مائة فى المائة للتنمية، وهذا ليس بشيء امام مخلفات كل حفل من قيل وقال ومشاكل بالطّن والمثقال.

ويبدأ شهر العسل تحت كل هذه الظلال الثقيلة الباردة فيصير «شهر البصل» وتفوح رائحة الخداع والكذب فتنطلق عقيرة عبدالحليم حافظ «ومثلها عقيرة كل مطربينا»:

حلول وكدّاب ليه صدقتك!

أما كل أولئك الذّين شاركوا فى الكوميديا فيحسون بالندّم وتنطلق ألسنتهم بالأمثال «امش فى جنازة وما تمشى فى جوازة» أو «العروسة للعريس والجري للمتاعيس» ويبدأ العريس وأسرته يرددون «العروسة أول اسبوع فانوس منوّر وتانى أسبوع قرد مصوّر». وتردد أسرة العروس أشياء شبيهة إنها الحرب التى تبدأ احيانا فى مصر بصراحة فى حفلات الزفاف البلدية التى تتم فوق السطوح أو فى الهواء الطلق حيث تدخل أسرة العريس وأسرة العروس فى «قافية» يهاجم كل طرف صاحبه بالذع الصفات وتشارك فى القافية تحالفات من فنانين محترفين تؤجرهم كل أسرة، على نمط نقائض جرير والفرزدق فى سوق المربد.

وأكثر امتدادات تلك الحرب هى حرب الحموات النووية. تتكشف فى هذا الجو الأكاذيب تدريجيا وتختفى الملاحة فى الفتى والملائكية فى الفتاة ويبقى الفرد على حاله. لكن أطرف فصول تلك الحرب هي محاولة الفتاة (التى كانت ملاكا) ترويض الفتى (الذى كان مليحا) والعكس صحيح فى صراع للديّكة ينتهى بأن يهزم أحدهما الآخر ويقمع فيه انسانيته ويقهر كل وجوده الشخصى. وهذا الصراع طويل ومرير وتدريجى وكله أحزان ومآسى فتصبح الرابطة الزوجية رابطة قهرية «ذئب - حمل»، يتبادل فيه الحمل ثوب الذئب والعكس وقد يستقر كل منهما فى ثوبه نهائيا حتى الفراق بالموت او الطلاق.

وهناك حكاية شعبية عن

د. سليمان العطار

البصل !

زوج (مقهور) اشتكى حاله إلى زوج (قاهر) طالبا منه سر المهنة. فقال له :

ـ فى ليلة الزفاف أعددت قطة جائعة تحت السرّير فى غرفة النّوم. أخذت القطة تنونو وتموء وتفسد مغازلتى للعروس وهى فى ثوب الزفاف، فأخرجت سكينا حادّا وذبحتها أمام العروس المذعورة. ومن يومها ولم يفارقها ذعرها منى ! انه الفوز بالضربة القاضية !

عاد الزوج (المقهور) الى بيته ووضع تحت السرير قطة جائعة. وعند النوم ارتفع مواؤها . وأمام دهشة الزوجة (القاهرة) اخرج الزوج سكينا وذبح القطة فانفجرت دماؤها مع انفجار ضحكات الزوجة التى فهمت الملعوب وانطلقت تقول :

ـ كان من الأوّل ياروحى !

ويعلق المثل على هذا «زوجك على ما توخّذيه وابنك على ما تربّيه» ان المرأة اذا لم تتخذ المبادرة مع جنس الرجال «زوج ـ ابن ـ أب ـ أخ» فلن ينتظرها إلا أقسى أنواع الاستلاب .

وهناك حكاية شعبية اخرى من القرية المصرية تكرر قصة المذبوحة وما ترمز اليه من نمط العلاقة (قاهر ـ مقهور) الذى يتمثل فى شخصية شهريار قاتل الزوجة تقول الحكاية : لقد دخلت العروس غرفة النوم فى ليلة الدّخلة فوجدت فى الغرفة معرضا للسلاح من عصى وبنادق ومسدّسات وسكاكين . فقد قتل بهذه البندقية عشرة رجال ، وبذلك المسدس ثلاثة كما شجّ راس «دستة» اشخاص بالعصا وفتح بطن عشرات بالسكين . شعرت المسكينة بالرعب وجلست فى ركن الغرفة ترتعد حتى الصباح . وعندما حضر أهلها إليها بالصباحية لاحظوا حالها فسألوها فحكت لهم ما جرى وكان . فقالوا لها : «انه أجبن الناس ولم يقتل فأرا فى حياته، فلا تصدّقيه . وحتى تتأكدى فإنه سيذهب بالليل لرىّ أرضه . عندئذ تسلّلى الى الحقل وفكّي ثور الساقية وعودي به الى البيت دون ان يُحِسّ وانتظرى ماذا يحدث» . وبالفعل نفذت الوصيّة وعند عودتها إلى البيت بالثور رأت عريسها يجرى خلفها لاهث الأنفاس . وعندما وصل البيت سألته عما به ، فقال : «لقد هاجمنى عشرة لصوص وأنا أروي الزرع . قتلت منهم ثمانية لكن هرب اثنان بالثور» ضحكت الزوجة وقالت له : «ألا تسمع خوار ثورك فى الحظيرة ؟» أدرك الزوج الموقف ، فابتسم فى خجل قائلا لها : «لكن ألم أعجبك فى قدرتي على اتجرّي ؟!» .

الحكاية أشبه بالنكتة لكنها تشير إلى قضية موجودة فى الواقع عن الصراع الخفي بين الرجل والمرأة . انه ليس صراع قوة بقدر ما هو استمرار لحملة «إخفاء الذات» والخوف من المواجهة بالحقائق، فلا سبيل إلا إلى القهر والتنكر المستمر فى لفافة من الأكاذيب سنطلق عليها «شرنقة الذات» .

وتراثنا حافل بهذا النّوع من الصّراع: الرجل يستخدم سلطته التى استمدها من وضعه التاريخى المتميز ـ وهو تميّز يوشك على التلاشى ـ بجانب عضلاته التى اكتسبها خلال عصور العمل اليدوى الشاق، ويوشك الآن أن يفقدها بفضل الآلة ليصير فى نعومة المرأة . أما المرأة فتستخدم عقلها فى صنع الحيل الخفية ونصب الكمائن حتى تواجه القوة الغاشمة للرجل وما تسندها من أعراف ونظم اجتماعية. وقد سمىّ تراثنا الشعبى هذا الصراع (الكيد) وإليه يشيرون عند قولهم «كيد النّساء غلب كيد الرجال» . وفى هذا القول كثير من الصدق والعزاء لكل ضعيف مقهور يجيد استخدام عقله . فانتصار كيد النسّاء احيانا هو انتصار للعقل ضد العضلات وللضّعف الذكى على القوة التى لا تستخدم منحة الذكاء . ولا نقصد بهذا سوى العلاقة (رجل ـ امرأة) على مستوى عام لأن المرأة عانت بين كل شعوب العالم أقسى أنواع الظلم على امتداد التّاريخ لكننا كنا متميزين ، فقد وأدنا بناتنا ، وعندما أنقذهم الاسلام الحنيف وساواهم بالرجال فيما يمكن ان يتساوى فيه الجنسان تحايلنا بالتدريج على النّصوص عندما بدأت عصور تدهور الحضارة العربية حتى سلبناهم ما آتاهن الله من فضل وحقوق، فعادت المرأة تكيد للرجل مقابل كيده، وان لكَيْدَهُنَّ عظيم ولكن معظم الرجال يبحثون عن المتاعب دون ان يدروا بإصرارهم على ان تقوم العلاقة (رجل ـ امرأة) على الخوف دون الحبّ وعلى الطّاعة دون مناقشة إنّ الزوج بحكم العادة ـ وليس بحكم الحب او معانى الزّوجة السامية ـ يفرض على الزوجية قائمة من اللوائح والممنوعات لا تقل عما عانت من ممنوعات فى بيت أسرتها فقد يمنعها الزوج من الاتصال بأهلها . والنتيجة ان الأسرة عندنا غير سعيدة بكل المعايير . فهى تتكون من رجل فقد ظله (امرأته) حين نسى انسانيتها ولم يرفق «بقارورية الكريستالية» فنراه يبحث فى سريره وفى خارجه عن المرأة بينما زوجته بجواره لأنها لم تعد فانوساً منيراً وفقدت وجه (الفتاة الملاك) وهى أيضا يجتاحها فراغ عاطفي فاجع وأشواق نحو (الفتى المليح) الذى تجرّد عنه زوجها .

أما علاقة (أب ابنة = أخ ـ أخت) فهى بروفات للتمهيد لدور الفتى المليح. كثير من الآباء يحزنون لأن المولود بنت وليس ولدا، وهذا الموقف ينسحب على العلاقة (أب ـ ابن ، أب ـ ابنة، أخ ـ أخت) . الابن مفضل ومبجل، ومنذ نعومة أظفاره، يرى نفسه السّيد الذى تقوم أمه وأخته معا بترتيب سريره وتلميع حذائه وتلبية طلباته ابتداءا من احضار «كوب الماء» «لسلامته» حتى يروى ظمأه الشريف!

الابن حر والابنة عليها ألف قيد . فى مراهقته ديك فصيح وهى دجاجة منتوفة الريش والجناحين تتعود الفتاة على لون من العبودية للرجل حتى يطفح كيلها وتحلم بشىء من الحرية فى كنف فتى الأحلام القادم لانقاذها من هذا الوضع ، ولكن دون جدوى فان فتى الأحلام قد خضع لنفس التدريب الذى حظى به أخوها فقد تعوّد على دور السيّد امام طابور من الجوارى : أخواته وعلى رأسهن أمه (قلب أمه عليه انفطر وقلبه عليها حجر) فالأم تدريجيا تقبل من (المحروس) ابنها الأوامر وقد تطّاطىء له رأسا لم تطاطئها قط لأبيه .

ومن هنا اذا أرادت الابنة ـ ومثلها أمها ـ أن تحقق ذاتها فعليها باعمال الحيلة والأساليب السّرية من وراء ظهر الرجال «غاب القط العب يافار» وتتحول الحياة الى مسلسل (ميكى ـ ماوس) لكن فى حرب خفية لا يلتقى فيها المتحاربان وجها لوجه . ■■